أدوات التّماسك النّصي عند عبد القاهر الجرجاني

Tools of textual coherence according to Abd al-Qaher al-Jorjani

مريم هدّي[1]
جامعة أبو بكر بلقايد–تلمسان
meriemheddi9@gmail.com

تاريخ الوصول 2021/03/15 القبول 2022/03/01 النشر على الخط 2022/09/15
Received 15/03/2021 Accepted 01/03/2022 Published online 15/09/2022

ملخّص:

يشكل التماسك النصي مفصلا رئيسيا من مفاصل الدراسات النصية التي اعتمدتها لسانيات النص لاسيما نحو النص . ويقوم البحث في هذا المجال الوقوف على الروابط اللّغويّة التي ينهض عليها النص. وبذلك تكون لسانيات النص قد تجاوزت حدود الجملة إلى أفق النص الواسع، ليفسح المجال بعد ذلك أمام المتلقي ليحكم على النصّ بالجودة أو الرداءة. وسيعالج هذا البحث آليات التماسك النصي عند أحد أعمدة البلاغة العربية ألا وهو عبد القاهر الجرجاني، وسنتوقف عند العطف، والشرط والحذف، مجليا دورها في تماسك أيّ نص لغوي.

الكلمات المفتاحية: التماسك، النص، عبد القاهر الجرجاني، العطف، الحذف، الشرط.

Abstract:

Cohesion has a mandatory presence in any text in order to fulfill its full meaning. There are many ways and tools of cohesion in any text, and if it is absent, it becomes unrelated shoulder sentences, so the text becomes a soulless structure.

This research deals with tools of textual coherence according to Abd al quaher al_jorjani, in order to discover the tools he adapted in speech systems, the most important of which are: suppression, condition and others.

Keywords: Cohesion, text,Abd- Al jorjani, cohesion ،tools .

[1] المؤلّف المراسل: **مريم هدّي** البريد الإلكتروني: **meriemheddi9@gmail.com**

1. مقدّمة:

اهتمّت اللّسانيات الحديثة بدراسة الجملة من حيث حدودها وبنيتها باعتبارها شكلا لغويّا مستقلّا عن أي تركيب نحوي آخر، واعتبارها أكبر وحدة لغوية، فاشتغل الدّارسون على هذا المجال كلّ حسب منهجه إلى أن تنبّهوا أنّ الاشتغال بالجملة مجال ضيّق، ممّا جعلهم يدعون إلى انفتاح الدّرس اللّساني على دراسة النّص بأكمله، حيث ظهر علم جديد سمّي بلسانيات النّص يتكفّل بدراسة تماسك النّصوص وذلك من منطلق مسلّمة منطقية تقتضي بأن النّص ليس مجرّد تتابع من الجمل بل هو وحدة لغوية كاملة تتميّز بالاتساق والانسجام. وبناء على هذا نطرح الإشكالية التّالية: إلى أي مدى أسهمت أدوات الاتساق في تماسك النّص؟ وما هي أهمّ الأدوات الاتّساقية التي اعتمدها عبد القاهر الجرجاني؟

2. مفهوم التّماسك النّصي لغة واصطلاحا:

وردت المادّة اللّغوية (م س ك) في المعاجم العربية بمعان كثيرة، منها الشدّة والصلابة وعدم التفكّك.

وورد في أساس البلاغة للزمخشري (ت 538هـ) قوله:" أمسك الحبل وغيره، أو أمسك بالشيء ومسك وتمسّك واستمسك. و(أمسك عليك زوجك) وأمسكت عليه ماله : حبسته، وأمسك عن الأمر: كفّ عنه. وأمسكت واستمسكت، وما تماسك أن قال ذلك: وما تمالك، وهذا حائط لا يتماسك ولا يتمالك. وحفر في مسكة من الأرض: في صلابة".[1]

ومن التّعريفات الأخرى للتماسك: الرأي والعقل، وحبس الشيء، جاء في لسان العرب لابن منظور (ت 711 هـ) :"ورجل ذو مُسكةٍ ومُسكٍ، أي رأي وعقل يرجع إليه، وهو من ذلك. وفلانٌ له مُسكة له أي لا عقل له، ويُقال: ما بفلانٍ مُسكة أي ما به قوّة ولا عقلٌ، ويقال فيه مُسكةٌ من خير، بالضمّ، أي بقيّةٌ، وأمسك الشيء: حبسه، والمِسَكُ والمِسَاكُ: الموضع الذي يُمسك الماءَ، عن ابن الأعرابي، ورجل مَسيكٌ ومُسكةً أي بخيلٌ، والمِسّيكُ: البخيل، وكذلك المسُك، بضمّ الميم والسين، وفي حديث هند بنت عتبة: أنّ أبا سفيان رجلٌ مَسيكٌ أي: بخيل يمسك ما في يديه لا يعطيه أحدا وهو مثل البخيل وزنا ومعنى.[2]

وهناك تعريفات كثيرة للتماسك النصّي لا يتّسع المجال لذكرها كلّها، كالاعتدال مثلا عند الزبيدي، ويبقى المعنى اللّغوي لهذه المادّة ينحصر في الشدّة والصلابة، والاعتدال، والاحتباس. وكلّها معانٍ توحي بالترابط والالتحام.

أمّا اصطلاحا فالتماسك هو" الكيفية التي تمكّن القارئ من إدراك تدفق المعنى الناتج عن تنظيم النص، ومعها يصبح النصّ وحدة اتصالية متجانسة ".[3]

فالقارئ هو الوحيد الذي يمكنه اكتشاف تماسك النص من عدمه، وذلك بواسطة قراءته الواعية، وتفاعله مع معطيات النص.

كما تحدّثت الدّراسات القديمة عن التماسك النصّي ووظّفت لذلك العديد من المصطلحات والمفاهيم. والنص القرآني عند البلاغيين والعاملين في حقل التّفسير كان أوّل حقلٍ للممارسة النّصية العربية القديمة، حيث كان لقضية التماسك أهمية بالغة فقد

---

[1] الزمخشري، أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ-1998م، مادة (مسك)، ج2، ص213.

[2] ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، ج10، ص488، مادة (مسك).

[3] ينظر: عزة شبل محمد، علم لغة النص النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2، 143هـ، 2009م، ص184.

عالجوه معالجة ذكية، وعبّروا عنه من خلال استخدام مصطلحات متعدّدة مثل: التلاحم، النّظم، تناسب الأجزاء، الانسجام، والمشاكلة.[1]

إنّ القرآن الكريم كان المحضن الأوّل للممارسة النصية قديما، فهو يتميّز بتماسك آياته وسوره، رغم اختلاف هذه الأخيرة بين المكي والمدني وحتى بين الموضوعات التي يتناولها هذا الكتاب المقدّس، فهو متماسك بين أجزائه وأحزابه.

3. مفهوم النّص:

جاء في لسان العرب: نصّ الشيء رفعه وأظهره، وفلان نص أي استسقى مسألته عن الشيء حتى استخرج ما عنده، ونص الحديث ينصّه نصًّا، إذا رفعه، ونص كلّ شيء منتهاه.[2]

وعند الأصوليين لقي هذا المصطلح اهتماما كبيرا باعتباره طرفا أو جهة من جهات معادلة "علاقة اللّفظ بالمعنى" والتي كان لها حظ الأسد من الاهتمام عندهم، فتجدهم _جرّاء ذلك_ أطلقوا على بعض الألفاظ ومصطلحات عديدة تبعا لدرجات ظهور المعنى فيها وخفائه، أمّا الذي يرتبط بوضوح المعنى، فذلك هو الظاهر والنصّ والمفسر والمحكم، وأمّا الذي يرتبط بغموض المعنى فذلك هو الخفي، والمشكل، والمجمل والمتشابه.[3]

وفي الاصطلاح تعدّدت مفاهيم النصّ، بتعدّد التوجيهات المعرفية والنظرية، ولحرص علماء اللّغة على التدقيق في التعريفات أكّدوا ما يلي حول النصّ:

يرى هاليداي و رقية حسن أنَّ:" كلمة نص تستخدم في علم اللغة للإشارة إلى أي فقرة **any passage**، منطوقة أو مكتوبة **spoker written**، مهما طالت أو امتدّت... والنصّ هو وحدة اللغة المستعملة، وليس محدّدا بحجمه... وهو يرتبط بالجملة بالطريقة التي ترتبط بها الجملة بالعبارة... والنص لاشك أنه يختلف عن الجملة في النوع.[4]

فالنصّ حسب هذان العالمان هو كل شكل منطوق أو مكتوب على حدّ السواء، ولا يشترطان طولا محدّدا له، ينطلق من الجملة ثم العبارة ليشكّل في النهاية نصّا متكاملا.

4 . أدوات التّماسك النّصي:

لكلّ علمٍ مصطلحاته الخاصّة به و أدواته التي يقوم عليها، وتميّزه عن باقي العلوم الأخرى. وقد اتّفق علماء اللّغة على أدوات مشتركة لدراسة تماسك النصوص و التحامها.

ومن أبرز من تحدّث عن أدوات التماسك هاليداي و رقية حسن، فقد قام كتابهما" التماسك في الإنجليزية على خمس أدوات هي كما ذكرت في مقدّمة الكتاب:

- المرجعية **reference** (الإحالة).

---

[1] ينظر، خلود الهموش، الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق، –مثل من سورة البقرة– عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2008م، ص41.

[2] ابن منظور، لسان العرب، ج2، ص42 –44.

[3] ينظر: السيد أحمد عبد الغفار، التصوير اللغوي عند الأصوليين، مكتبات عكاظ للنشر، الإسكندرية، ط1، 1401هـ–1981م، ص144_145.

[4] ينظر: صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق – دراسة تطبيقية على السور المكية– دار قباء، ط1، 2000م، ص29.

- الإبدال **substituotion**.
- الحذف **ellipsis** .
- العطف **conjunction**.
- التماسك المعجمي **lexical cohesion**.[1]

فلا يمكن لأي نصّ أن يخلو من أدوات التماسك التي تضمن للقارئ سهولة الفهم: بل هناك أدوات أخرى تسهم في هذا التماسك كالترادف و المطابقة. وهذه الأدوات قسّمها الدارسون بين أدوات داخلية وخارجية، وبين أدوات دلالية و شكلية وأخرى مشتركة، واتّضح أنّ هذه الأدوات شرط ضروري في أيّ نصّ حتّى يتحقق وجوده.

ويمكن تلخيص أدوات التماسك النصّي في الشكل التالي:[1]

[1] المرجع السابق: ص116.

المصدر: صبحي إبراهيم، علم اللغة النّصي، ص120.

4. التّماسك النّصي عند عبد القاهر الجرجاني:

1.4 المنزلة العلميّة لعبد القاهر الجرجاني:

لابدّ لرجل مثل عبد القاهر الجرجاني علما أن يحظى بمنزلة عظيمة وأن يتصدّر مجالس الدرس والعلم. ذكره القفطي في أنباه الرواة بقوله :"فارسي الأصل، جرجاني الدّار، عالم بالنّحو والبلاغة، أخذ النحو بجرجان عن الشّيخ أبي الحسين محمد بن الحسن بن محمد بن عبد الوارث الفارسيّ، نزيل جرجان. وقرأ ونظر في تصانيف النحاة والأدباء، وتصدّر بجرجان، حُثّتْ إليه الرّحال، وصنّف التصانيف الجليلة".[2]

من تصانيفه: كتاب "المقتصد" في شرح "الإيضاح" وله شرح كتاب "العوامل" سمّاه "الجمل" ثمّ صنّف شرحه، فجرى على عادته في الإيجاز، وله "إعجاز القرآن" دلّ على معرفته بأصول البلاغات ومجاز الإيجاز، وله مسائل منثورة أثبتها في مجلّد، هو كالتذكرة له، لم يستوف القول حق الاستيفاء في المسائل التي سطرها، ومع هذا كلّه فإنّ كلامه وغوصه على جواهر هذا النوع يدلّ على تبحره وكثرة اطلاعه.[3]

لقد بلغ التأليف البلاغي ذروته من الإحكام والنضج في القرن الهجري الخامس، وذلك على يد الإمام الجرجاني، صاحب كتابي "دلائل الإعجاز" و "أسرار البلاغة"، الذي برع في علوم العربية، حتى كانت له الإمامة في عصره، فألّف في النحو والإعجاز والبلاغة كتبا تشهد له بالفكر النافذ والعلم الواسع والذوق المرهف، وبطول الباع وسداد الرأي في النحو والبلاغة والنقد.[4]

كان الجرجاني معدودا من أهل عصره، ثمّ تجاوزه آمادا واسعة في عصور متأخّرة من بعده، خرج فيها على الناس بإنتاج أدبيّ ولغويّ وبلاغي، ترتسم فيه وثبة التحرّر من قبضة المألوف في نقله لدرس الموروث، بانبعاث جديد في اتّخاذ منهج البحث الأدبي وسيلة للاستمرار في الإبداع والكشف والإضافات.[5]

فأعجب المؤرّخون بعلمه وخلقه وأدبه، فقال عنه معاصره الباخرزي (ت467هـ) في دهية القصر :"اتفقت على إمامته الألسنة وتجمّلت بمكانه وزمانه الأمكنة والأزمنة، وأثنى عليه طيب العناصر، وثنيت به عقود الخناصر فهو فرد في علمه الغزير لا بل هو العلم الفرد في الأئمة المشاهير".[6]

تناول الجرجاني العديد من القضايا الأدبية واللغوية في مؤلّفاته، وهو يعدّ بحقّ رائدا من رواد العربية.

---

[1] المرجع نفسه، ص120.

[2] ينظر: علي ابن يوسف القفطي، أنباه الرواة على أنباه النحاة، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1406هـ-1986م، ج2،ص 188.

[3] المصدر نفسه، ص189.

[4] مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ، دار الفكر، دط، دت، ص89.

[5] محمد عباس، الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ_1999م، ص10.

[6] علي بن الحسن بن أبي الطيب الباخرزي، دهية القصر و عصرة أهل العصر، دار الجيل، بيروت، ج1، ط1، 1414هـ، ص158.

2.4 التّماسك النّصي عند عبد القاهر الجرجاني:

لقد حظي عبد القاهر الجرجاني (ت471هـ) بعناية كبيرة من قبل الباحثين والدّارسين المحدثين، كونه من كبار أئمّة العربية والبيان في القرن الخامس الهجري، حيث اهتمّ بالنصّ القرآني

وبأسرار بلاغته وإعجازه، وتجسّد ذلك من خلال مؤلفيه الشاملين "دلائل الإعجاز" و "أسرار البلاغة"، كما أنّه صاحب نظرية النّظم التي بلور مواضيعها وصاغها صياغة محكمة وجديدة.

هذه النّظرية التي تحمل في طياتها بذورا لعلم جديد، أصبح يعرف اليوم: بعلم لسانيات النص، يقول إبراهيم خليل :"...لا يشيرون إلى ما في آرائه من تمهيد مبكر، وتوطئة متقدمة في الزمن، لما أصبح معروفا اليوم باسم قواعد التماسك النحوي، الذي هو باب من أبواب النّظر يعني به علم قواعد النص، أو ما يعرف بعلم النص، أو علم اللغة النصّي...أنّ الجرجاني عن قصد، أو عن غير قصد، تطرّق إلى كثير ممّا يعرف بقواعد التماسك النحوي".[1]

لقد كان عبد القاهر الجرجاني من أوائل العلماء القدامى الذين اتخذوا من النّص القرآني ميدانا خصبا للممارسة النّصية.

أكّد عبد القاهر الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز" أنّ النص القرآني وحدة متماسكة من خلال إجابته عن سؤاله الذي طرحه على سامعه والتي يدور حول السبب الذي أعجز العرب أصحاب اللغة الفصيحة والبيان الباهر عن الإتيان ولو بآية من مثل آيات القرآن الكريم فتساءل عن سبب عجزهم فقال:"تأملوه سورة سورة، وعشرا عشرا، وآية آية، فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها، ولفظة ينكر شأنها، أو يُرى أنّ غيرها أصلح هناك أو أشبه، أو أحرى وأخلق، بل وجدوا اتّساقا بهر العقول، وأعجز الجمهور، ونظاما والتئاما، وإتقانا وإحكاما".[2]

فالجرجاني أتى بمصطلح الاتّساق ووظفه لخدمة النص القرآني المقدّس، و ليصف به شدّة تماسكه وتضامّ آياته وسوره. ويقول في موضع آخر عن معنى التماسك بصورة تكاد تكون أوضح من مفهومه عند الدارسين المحدثين :"واعلم أنّ ممّا هو أصل في أن يدقّ النظر ويغمض المسلك في توخي المعاني التي عرفت أن تتّحد أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض ويشتدّ ارتباط ثانٍ منها بأول، وأن يحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعا واحدا، وأن يكون حالك فيها حال الباني يضع بيمينه ههنا، في حال ما يضع بيساره هناك، نعم وفي حال ما يبصر مكان ثالثٍ ورابعٍ يضعهما بعد الأولين..."، "واعلم أنّ من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته، أن لم يحتج واضعه إلى فكر ورويّة حتى انتظم، بل ترى سبيله في ضمّ بعضه إلى بعض سبيل من عمد إلى لآل فخرطها في سلك لا يبغي أكثر من أن يمنعها التفرق".[3]

لقد أشار عبد القاهر الجرجاني من خلال هذين القولين إلى قضايا تتعلّق بالتحليل النصّي، وأولها النظرة الكلية للنص، وثانيها ذكره لأهمّ المصطلحات التي تندرج في لسانيان النص، كالاتساق (التماسك) المرتبط بالجوانب الدلالية المتعلقة بما يحيط بالنص، والإحالات الخارجية، ومصطلح الالتئام الذي يقابل التماسك النصّي.[4]

---

[1] ينظر: إبراهيم خليل، في اللسانيات ونحو النص، دار الميسرة للنشر والتوزيع، عمان، 2007م، ص132.

[2] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلّق عليه، محمود محمد شاكر، شركة القدس للنشر والتوزيع، دط، دت، ص39.

[3] المصدر نفسه، ص38.

[4] ينظر: صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصّي، ص127.

فعبد القاهر الجرجاني تطرّق إلى بعض المصطلحات التي وظّفها في نظرية النّظم وهي تلقي ما جاء به المحدثون من مصطلحات حول علم النّص، ومن أبرزها: النّظم، التعليق، الفصاحة، معاني النحو وأخيرا النسج والصياغة. يقول الجرجاني في الدلائل: "ولم أزل منذ خدمتُ العلم أنظر فيما قاله العلماء في معنى ((الفصاحة))، و((البلاغة)) و((البيان)) و((البراعة))، وفي بيان المغزى من هذه العبارات، وتفسير المراد بها، فأجد بعضَ ذلك كالرمز والإيماء، والإشارة في خفاءٍ، وبعضه كالتنبيه على مكان الخبيءِ ليُطْلب، وموضعِ الدَّفين ليُبْحث عنه فيُخرَج، وكما يفتح لك الطريقُ إلى المطلوب لتسلكه، وتُوضَع لك القاعدة لتبنيَ عليها. ووجدتُ المعوَّل على أن ههنا نظماً وترتيباً، وتأليفاً وتركيباً، وصياغةً وتصويراً، ونسجاً وتحبيراً، وأن سبيل هذه المعاني في الكلام الذي هي مجازٌ فيه، سبيلُها في الأشياء التي هي حقيقة فيها، وأنّه كما يَفضُل هناك النظمُ النظمَ، والتأليفُ التأليفَ، والنسجُ النسجَ، والصياغةُ الصياغةَ".[1]

فعبد القاهر في هذا النصّ يدعو سامعه أو قارئه إلى التمعّن في مكامن النصّ ليستخرج الدفين فيه ويبحث عنه فيخرجه وهو بذلك يبحث في وسائل تماسك هذا النص فيشير إلى بعض الأدوات كالرمز والإشارة. فيكشف بذلك عن تلك العلاقات الداخلية و الخارجية للنص.

لقد كانت فكرة الانسجام النصّي واضحة في فكر عبد القاهر الجرجاني، فهو يعبّر عنها بقوله :"واعلم أنّ مثل واضع الكلام مَثل من يأخذ قطعا من الذهب أو الفضّة فيذيب بعضها في بعض حتى تصير قطعة واحدة".[2]

العطف:

ولم يقف الجرجاني عند حدّ وصف طريقة وضع الكلام، بل تعدّاه إلى وصف الوسائل التي بواسطتها يتحقق التماسك والانسجام داخل النص. وأهمّ وسيلة هي ظاهرة الوصل والفصل، التي أفرز لها فصلا كاملا في كتابه الذي نال شهرة كبيرة في الدراسات اللغوية (الدلائل).

فحروف العطف تعدّ من أهمّ الروابط بين أجزاء الكلام، وهي تربط بين الكلمات المفردة وبين الجمل بل تصل بين العبارات والفقرات.

يقول الجرجاني :"فأمر العطف إذن، موضوعٌ على أنك تعطف تارة جملة على جملة، وتعمدُ أخرى إلى جملتين أو جمل فتعطف بعضا على بعض ثم تعطف مجموع هذين على مجموع تلك".[3]

وقد نبّه الجرجاني إلى أهميّة الوصل و مدى تأثيره في إنتاج الكلام، فيمثل ويفصل ويقف على ما ينبغي الوقوف عليه، فنراه يقول :"...واعلم أنك لا تشفي الغلّة، ولا تنتهي إلى ثلج اليقين حتى تتجاوز حدّ العلم بالشيء مجملا إلى العلم به مفصّلا، وحتى لا يقنعك إلاّ النظر في زواياه والتغلغل في مكامنه، وحتى تكون كمن تتبّع الماء حتى عرف منبعه، وانتهى في البحث عن جوهر العود الذي يصنع فيه، إلى أن يعرف منبته، ومجرى عروق الشجر الذي هو منه".[4]

---

[1] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص34_35.

[2] المصدر نفسه، ص444.

[3] المصدر نفسه، ص245.

[4] المصدر نفسه، ص260.

فالكلام الفصيح و الجيّد عند الجرجاني هو ما كان متخيّر اللّفظ جيّد السّبك مترابط الجمل والعبارات بشكل غير مخلّ بالمعنى ولا مملّ. وأهمّ وسائل العطف التي ركّز عليها عبد القاهر الجرجاني، الواو، والفاء، و أو، وتفيد الواو عند الجرجاني الإشراك في المعنى "وليس للواو معنى سوى الإشراك في الحكم الذي يقتضيه الإعراب الذي أتبعت فيه الثاني الأوّل، ولا يُتصوّر إشراك بين شيئين حتى يكون هناك معنى يقع ذلك الإشراك فيه. وإذا كان ذلك كذلك/ ولم يكن معنى في قولنا: "زيد قائم وعمرو قاعد" معنى نزعم أنّ ((الواو)) أشركت بين هاتين الجملتين فيه، ثبت إشكال المسألة".[1]

نلاحظ من هذا النص أنّ الجرجاني يركّز كثيرا على حضور المعنى بين الجمل المترابطة وأن يكون لها نفس الإعراب وهذا الإشراك في المعنى والإعراب هو الذي يضمن التماسك بين الجمل، يدلك على ذلك أنّك إن جئت فعطفت على الأوّل شيئا ليس منه بسبب، ولا هو ممّا يذكر بذكره، ويتّصل حديثه بحديثه لم يستقم، فلو قلت: خرجت اليوم من داري، ثم قلت: وأحسن الذي يقول بيت كذا، قلت ما يضحك منه، ومن هاهنا، عابوا أبا تمام في قوله :" لا والذي هو عالم أنّ النوى، صبر وأن أبا الحسين كريم وذلك لأنه لا مناسبة بين كرم أبي الحسين، ومرارة النوى، ولا تعلّق لأحدهما بالآخر، وليس يقتضي الحديث بهذا الحديث بذاك".[2]

نظر عبد القاهر الجرجاني إلى طبيعة العلاقة بين المفردات والجمل، وإلى ضرورة وجود تلك الروابط التي تآخي بين الكلمات فيسهل فهم المعنى من ورائها. وعلم الجرجاني أنّ الترابط مهم في الماسك النصي، ولا بدّ في عطف الجمل والعبارات من توفر مناسبة تجمع بين المعاني وإلاّ تفكّكت الجمل وفسد معناها. ولم يقف الجرجاني عند حدود العطف بالواو بل استعمل روابط عديدة في مؤلفاته، كالفاء وثمّ وغيرها حيث لا يتّسع المقام إلى ذكرها كلّها.

تقوم أدوات العطف بدور مهم في التماسك، فهي تدل على معنى وظيفي عام هو التّعليق والربط بين أجزاء الكلام. وقد ظهر التماسك النصي عند الجرجاني بأشكاله وملامحه موزعا ومتنوعا في الدلائل. ومن هنا نقول إنّ التماسك النصي ضارب جذوره في الدراسات العربية القديمة في علوم كثيرة مثل: البلاغة، والنحو، والمنطق...

الشرط:

كان لأداة الشرط في نظرية النظم عند الجرجاني دلالات توجبها ومعانٍ تستند عليها، حيث تتكوّن جملة الشرط كما حدّده النحاة من أداة الشرط، وفعل الشرط، وجواب الشرط، والعلاقة بين هاته العناصر علاقة تزامنية، فيلزم من وجودة أداة الشرط فعل الشرط وجوابه وهو ما يحدث في النص خصوصية.

وهكذا لكلّ بنية نحوية حالات توجبها ومعانٍ تستند عليها، فالمبتدأ يقتضي خبرا، والفعل فاعلا، وحرف الجرّ يقتضي مجرورا وهكذا. وعبد القاهر الجرجاني من النحاة الذين وظّفوا مستلزمات النحو في معالجة القضايا البلاغية، فعمل على ربط الكلام بعضه ببعض لبيان محتوى النص، يقول في باب الشرط :"..وينبغي أن يُجعل ما يُصنع في الشرط والجزاء من هذا المعنى أصلا يعتبر به؛ وذلك أنّك ترى متى شئت جملتين قد عطفت إحداهما على الأخرى، ثمّ جعلنا بمجموعهما شرطا، ومثال ذلك قوله تعالى".[3]

---

[1] ينظر: عبد القاهر الجرجاني، 226.

[2] ينظر: المصدر نفسه، 224-225.

[3] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص245-246-247.

ففي هذا الكلام المستفيض، يتحدّث الجرجاني عن الشرط في مجموع جملتين، وكيف استفاد من النص القرآني لإظهار أدوات الشرط وما تعمله في المعنى، فالمعوّل عليه في نظرية النظم هو معرفة مدلول أدوات الشرط، وحسن التخيّر لمواضعها، فالمزية والفضل عند الجرجاني بحسب المواضع، وهكذا يوظف عبد القاهر الجرجاني أدوات الشرط لبناء نص متماسك سليم المعنى والمبنى.

التقديم والتأخير:

من البديهي في اللغة العربية أن يرتب الكلام بحسب القواعد المتعارف عليها عند النحاة بشكل خاص وعند اللغويين بشكل عام. فالفعل مثلا مقدّم على الفاعل، والمبتدأ يسبق الخبر والصفة تتبع الموصوف وغيرها من المسائل المتعلقة بالمسند والمسند إليه.

إلاّ أنّه لاعتبارات بلاغية قد تتغير الرتب في الجملة العربية لاعتبار ما يتطلبها المقام، ويعدّ التقديم والتأخير من الأدوات اللفظية التي تسهم في إغناء النصوص وزيادة جمالها وتعميق معانيها، فتحدث وقعا خاصّا لدى القارئ. وقد أفرد عبد القاهر الجرجاني في الدلائل بابا واسعا للحديث عن التقديم و التأخير وفائدته الكبيرة، يقول في ذلك :"... هو باب كثير الفوائد، جمّ المحاسن، واسع التصرّف، بعيد الغاية، لا يزال يفترُّ لك عن بديعه، ويُفْضي بك إلى لطيفه، ولا تزال ترى شعراً يروقك مسْمَعُه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سببَ أن راقك ولطُف عندك، أن قُدِّم فيه شيء، حُوّل اللفظ عن مكان إلى مكان".[1]

ثمّ يشرح الجرجاني في تقسيم التقديم باعتبارات مختلفة، تقديم على نية التأخير، وذلك الذي كان عليه، شيء أقررته مع التقديم على حكمه الذي كان عليه، وتقديم لا على نيّة التأخير فتنقل الشيء عن حكم إلى حكم وتجعل له بابا غير بابه وإعرابا غير إعرابه، ثمّ يتحدّث بإسهاب عن التقديم والتأخير في أجزاء الكلام، التقديم في النكرة، وبعض المفردات ك "مثل" و "غير" معززا كلامه بالشواهد والأمثلة، حتى يظهرما نتج عن تغيير الأماكن داخل الجملة الذي أدى في أحيان كثيرة إلى تغيير الوظائف، ثم تحدّث عن النفي والإثبات والاستفهام وكلّها أدوات ووسائل تساهم في نظم الكلام وتماسكه.

الحذف:

يعدّ الحذف من أهمّ عناصر التماسك النصّي عند المحدثين، والجرجاني من العلماء الأوائل الذين تنبهوا لهذا الأمر فكانت له الرّيادة والسبق فيه. يقول في شأنه:"هو باب دقيق المسْلك، لطيف المأخذ، عجيبُ الأمر، شبيه بالسّحر، فإنك ترى به ترْك الذِّكر، والصمتَ عن الإفادة، أزيد للإفادة، وتجدُك أنطقَ ما تكون إذا لم تنطِق، وأتمَّ ما تكون بيانا إذا لم تُبِن. وهذه جملة قد تنكرها حتى تَخْبُرَ، وتدفعُها حتى تنظرَ، وأنا أكتب لك بديئا أمثلة مما عرض فيه الحذفُ، ثم أنبهك على صِحَّة ما أشرتُ إليه، وأُقيم الحجَّةَ من ذلك عليه".[2]

فيصف الجرجاني الحذف بأوصاف شتى: دقيق المسلك، عجيب ، شبيه بالسحر، لأنه ليس في متناول أي أحد أن يصل إلى هذا الأسلوب، فهو يحتاج إلى تمعّن وحسن نظر وبصيرة نافذة. يقول سعيد بحيري :"ونلحظ ابتداء أنه قد حلل مسائل محدودة في هذا الباب، وربما لم يهدف من تلك المعالجة إلاّ إلى الإشارة إلى مواضع تخفى على القارئ المتمرس، أو لم يمتد إلى أسرارها من تصدّى لبيان الوجوه والفروق في مسائل الحذف، وتعليل مبدأ "ترك الفكر أفصح من الذكر" وهذا يعني أنّ عبد القاهر يرفض مسلك

[1] المصدر نفسه، ص106.

[2] المصدر السابق، ص145.

السابقين؛ إذ لا قيمة لوصف الظاهرة فحسب، بل تكمن القيمة الفعلية في إطار رؤيته الخاصّة للنظم في النفاذ من التأليف أو الصياغة إلى معرفة علّة أو سبب اختيار الحذف وترك الذكر".[1]

ونخلص ختاما إلى أنّ الجرجاني يرى أنّ ترك الحذف مع وجود الدلائل والقرائن يخلّ بالترابط والتماسك بين أجزاء الكلام.

إنّ النظم عند عبد القاهر الجرجاني هو نظير للنسج والتأليف والصياغة والبناء، والوشي، والتحبير، وما أشبه ذلك ممّا يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض.[2]

ننتهي إلى أن العطف والشرط والحذف والتقديم والتأخير من الأساليب المهمّة التي اعتمدها الجرجاني للتماسك النصّي.

5. خاتمة:

أدرك علماء العرب القدامى التماسك النصّي منذ بداية عهد التأليف، فأحسّوا بأهميته وأدركوا فائدته العظيمة في تناسق النص الأدبي، ولا يمكن الحديث عن هذه الظاهرة اللغوية دون الإشارة إلى جهود عبد القاهر الجرجاني فيها، بما يمثله من وعي بلاغي ونقدي ولغوي، خاصّة من خلال نظرية النّظم التي كان لها الفضل العظيم في الوقوف على أهمّ الروابط النّصية.

يؤكّد الجرجاني على تحديد العلاقات بين الدوال والتراكيب من خلال توفر مجموعة من الشروط، أهمّها: العطف، والشرط، والحذف والتقديم والتأخير في إطار يقدّم النص ككل متكامل.

ما تناوله الجرجاني في كتابه "دلائل الإعجاز" هو حقيقة قارة في الدراسات النصية الحديثة.

جمع الجرجاني في معالجته النصية بين التنظير والتطبيق، فالأمثلة التي قام بتحليلها، وإدراكه لعناصر التماسك النصي فيها خير دليل على ذلك.

سلامة اللّغة لا يتأتى إلا بالتوظيف الجيد لأدوات الربط، وبذلك يتم الفهم والإدراك من طرف المتلقي.

[1] ينظر: سعيد حسين بحيري، دراسات لغوية تطبيقية في العلاقات بين البنية والدلالة، مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2005م، ص247.

[2] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني،شرحه ياسين أيوبي، الكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2002، ص357.

6. قائمة المصادر والمراجع:

- إبراهيم خليل، في اللسانيات ونحو النص، دار الميسرة للنشر والتوزيع، عمان ط1، 2007م.
- خلود الهموش، الخطاب القرآني دراسة في العلاقة بين النص والسياق، –مثل من سورة البقرة– عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ط1، 2008م.
- الزمخشري، أساس البلاغة، تح محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1419هـ-1998م،ج2.
- سعيد حسين بحيري، دراسات لغوية تطبيقية في العلاقات بين البنية والدلالة، مكتبة الآداب للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2005م.
- السيد أحمد عبد الغفار، التصوير اللغوي عند الأصوليين، مكتبات عكاظ للنشر، الإسكندرية، ط1، 1401هـ-1981م.
- صبحي إبراهيم الفقي، علم اللغة النصّي بين النظرية والتطبيق – دراسة تطبيقية على السور المكية– دار قباء، ط1، 2000م.
- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز في علم المعاني، شرحه ياسين أيوبي، الكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 2002.
- عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، قرأه وعلّق عليه، محمود محمد شاكر، شركة القدس للنشر والتوزيع، دط، دت.
- عزة شبل محمد، علم لغة النص النظرية والتطبيق، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2، 143هـ، 2009م.
- علي ابن يوسف القفطي، أنباه الرواة على أنباه النحاة، تح محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي، القاهرة، ط1، 1406هـ-1986م، ج2.
- علي بن الحسن بن أبي الطيب الباخرزي، دهية القصر و عصرة أهل العصر، دار الجيل، بيروت، ج1، ط1، 1414هـ، ص158.
- مازن المبارك، الموجز في تاريخ البلاغة، ، دار الفكر، دط، دت.
- محمد عباس، الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ط1، 1420هـ-1999م.
- ابن منظور، لسان العرب، تصنيف مجموعة من الأساتذة، دار صادر، بيروت، ط3، 1414هـ، 1994هـ، ج2.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر،بيروت، ط3، 1414هـ، ج10.